أوراق دمشقية

مداد
مركز دمشق للأبحاث والدراسات
Damascus Center For Research and Studies

دور الإعلام في الحروب والأزمات
الحرب على سورية نموذجا

سلسلة أوراق دمشق - العدد الخامس

د. نهلة عساف عيسى

مداد ...

مؤسسةٌ بحثيةٌ مستقلّة تأسّست عام ٢٠١٥، مقرّها مدينة دمشق، تُعنى بالسياسات العامّة والشؤون الإقليمية والدولية، وقضايا العلوم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والقانونية والعسكرية والأمنية، وذلك بالمعنى المعرفيّ الشّامل (نظريّاً، وتطبيقيّاً)، بالإضافة إلى عنايتها بالدراسات المستقبلية/الاستشرافية، وتركيزها على السياسات والقضايا الرّاهنة، ومتابعة فاعلي السياسة المحلية والإقليمية والدولية، على أساس النّقد والتقييم، واستقصاء التداعيات المحتملة والبدائل والخيارات الممكنة حيالها.

جميع حقوق النشر محفوظة © ٢٠١٧

سورية – دمشق – مزة فيلات غربية – خلف بناء الاتصالات – شارع تشيلي – بناء الحلاق **85**

www.dcrs.sy

info@dcrs.sy

أوراق دمشق

أوراق دمشق مشروع فضاء فكري مفتوح، يطمح أن يكون رحباً ومتنوعاً، يمتلك جرأة طرح الأسئلة الإشكالية والصعبة وشجاعة التصدي لاجتراح إجابات تدرك محاذير ادعاء امتلاك الحقيقة والركون السهل إلى اليقين.

وهو ليس مشروعاً لمركز دمشق للأبحاث والدراسات – مداد، بقدر ما هو مشروع للجماعة الثقافية والفكرية السورية، إنه ملك لكل مثقف يشعر أنه مشغول بمقاربة مشكلة أو إشكالية تتصل بالمشهد الثقافي السوري، ومعني بأن يكون أحد فواعل هذا المشهد بالإضافة أو التحليل أو النقد أو بركوب مغامرة طرح الحلول، وقادر بأدواته المفاهيمية على رصد المشكلة وتحسس أهميتها وتفكيك مكوناتها وتلمس عواملها وتبيان علاقاتها والحفر في ممكناتها واستشراف مآلاتها، من منظور كلي مستجيب للمتطلبات العلمية الموضوعية والمنهجية، ومدرك أن ما يقدمه، لا يمكن أن يمثل جماع القول في موضوعه أو القول الفصل فيه.

إنه مشروع يتطلع أن تكون مخرجاته نتاج عمل حواري نقدي جماعي، تتداول فيه الأفكار المطروحة في الورقة الأساسية والتعقيبات ضمن حلقات نقاشية تطمح لإنتاج وفرة من الرؤى المعرفية الخصبة والعميقة، علها ترتقي، بالتضافر مع مشاريع وجهود أخرى، إلى تشكيل نواة صلبة لخطاب فكري ثقافي يليق بسورية وبالسوريين.

جميع حقوق النشر محفوظة © ٢٠١٧

سورية – دمشق – مزة فيلات غربية – خلف بناء الاتصالات – شارع تشيلي – بناء الحلاق 85

www.dcrs.sy

info@dcrs.sy

مداد
مركز دمشق للأبحاث والدراسات

دور الإعلام في الحروب والأزمات

الحرب على سورية نموذجاً

د. نهلة عساف عيسى

مدخل

شكلت السنوات الماضية بتداعياتها الكارثية على المستويات كافة، واقع حال وطنيّاً وإقليميّاً –ولو أمكن التعميم– غير باعث على التفاؤل، بل بعبارة أدق باعث على الاكتئاب، لأنه يشي بموقف دولي يسعى لتفكيك العديد من دول المنطقة على أسس طائفية وعشائرية ومناطقية، مما يسمح بوصف السياسات العالمية بالمعتمة والملتبسة وغير الأخلاقية، كما يضع كل دول المنطقة وفي العمق سورية بمرجعياتها وخياراتها المعلنة، في حالة مقاومة وجودية للتحديات المطروحة من قبل –ليس فقط الممارسات السياسية الدولية والإقليمية– الحركات الدينية الإرهابية التي تطرح علينا على نحوٍ متزايد الاختيار بين الحالة الراهنة للأمور، أو ما هو أسوأ، بحيث يبدو أنه ليس هناك من بدائل سوى القبول والإذعان، وتقييم حياتنا وأعمالنا وأولوياتنا في ظل توقع ضئيل بأن يكون المستقبل أمراً مختلفاً عن الحاضر في زمن يسوده الإنهاك السياسي والثقافي والحضاري، وتتهافت فيه القيم والمشتركات الوطنية أمام تحديات وجودية جدية، تجعل فكرة الحياة "يوماً بيوم" هي أفضل ما يمكن فعله!؟

يدفعُ هذا الوضعُ إلى طرحِ سؤالٍ جِدِّيٍ مُفاده: كيف يمكن للمستقبل أن يتجاوز الحاضر، وهل من الممكن الحديث عن بنية اجتماعية ثقافية وطنية في ظل تعددية دينية وعرقية وأيدلوجية وقومية...إلخ. يمكن للإعلام الوطني تدعيمها وتعزيزها، في ظل واقع تخيم عليه سحب داكنة من التظاهر والادعاء بأن خطوة إلى الوراء، هي مقدمة لعشر خطوات إلى الأمام، دون البحث عن مسببات التراجع، ومبررات النهوض؟

والحقيقة، أن الإجابة على هذه الأسئلة ليست أمراً متيسِّراً، ذلك أنَّ تعريف كلمتي "الثقافة" و"التعددية" (بالمعنى المواطني)، والعلاقة بينهما يحتاج ربما إلى مجلدات بأكملها، إضافة إلى كون المفهوم نفسه يشمل بمعناه المعاصر "كلَّ شيء ولا شيئاً" في الوقت نفسه، بحسبان أن التعريف المعاصر لكلمة ثقافة يشير إلى أن الثقافة هي: "أي نشاط لأي جماعة"، وهو تعريف مرن يقوض التعصب والتمحور حول الذات، لكن جدواه الاجتماعية لا تعادل مرونته، ولا تعكس حقيقته.

ذلك لأن الحديث عن كل جماعة بصفتها ثقافة، وكل نشاط بصفته ثقافياً، هو مقدمة للرطانة حول التنوع الثقافي، أي "التعددية" المؤدية إلى تغييب الحقائق الاجتماعية والاقتصادية التي تشكل المتغير المستقل، بينما تشكل الثقافة متغيراً تابعاً، إذ ما معنى الحديث عن تعدد ثقافي (خاصة في الدولة الواحدة) في غياب تعدد اقتصادي، وكيف يمكن لثقافتين مختلفتين أن تتشاركا أنشطة اقتصادية وسياسية متطابقة؟

تبدو هذه الأسئلة –كما سبق القول– صعبةً، لكنها ضرورية لمناقشة محور بحثنا هذا، ذلك أن الحديث الوطني الشائع هذه الأيام عن بنية ثقافية تعددية، يُعدّ نوعاً من التراجع السياسي واللهاث الوطني، واليأس من إمكانية إعادة بناء المجتمع ككل واحد متجانس، مما دفع الكثير منا إلى الاقتناع بأمور جزئية، وثقافات جزئية، فاقدة للدلالات، ومدفوعة بفهم "تجريدي" للثقافة، وفهم "شكلاني" للتعدد، تنطلق كلها من افتراض يفتقد إلى

الدليل والإثبات بأن ثقافات عدة متميزة تكون المجتمع السوري، بشكل يتجاهل أن الثقافة هي عمل من أعمال التفسير والتصنيف الاجتماعي والسياسي الاقتصادي، كما أنها نتاج التراكم الحضاري، والتجانس الثقافي الاجتماعي، والهويات الوطنية، كما يتحاشى حقيقة أن من يفتقدون الجذور (وليس من يمتلكونها) هم من يبالغون في تقديس الجذور في سياق انهيارها الفعلي، وأن التاريخ بصفته موروثاً ثقافيّاً، لا يمكن أن يستند في كتابته إلى شاهد واحد أو نص واحد أو نشاط واحد، أو مجموعة عرقية أو دينية أو ثنية أو قومية...إلخ، واحدة!

هذه بعض التساؤلات فيما يتعلق بموضوع الثقافة بصفتها العنصر الرئيس الذي تستهدفه وسائل الإعلام العولمية في عصرنا الراهن التي في إطار سعيها لتوحيد نمط وعلاقات الإنتاج في العالم، وفي ترويجها لسلعها على اختلاف أنواعها (التجارية، السياسية، الفكرية...إلخ)، تستخدم الثقافات المحلية والهويات الإثنية لتوسع أسواقها، وتبيع رموز هذه الثقافات كسلع، وبالتالي تساعد على تشظي العالم وتفككه، بل وتناحره أيضاً، وهو الأمر الذي ربما يفسر لماذا تعالت أصوات عديدة في الإقليم والعالم تنادي بالهوية والحتميات الثقافية والقومية والمذهبية لبعض مكونات الشعب السوري بالتزامن مع خطاب العولمة، على نحوٍ لا يطرح أيدلوجية دولية متماسكة، بل مجرد أفكار سياسية ترتكز على عوامل وظروف مواتية (متغيرة) يتم تشغيلها والتعامل معها والاستفادة منها عبر الاستعانة بأدوات ضغط اجتماعية فاعلة، تشكل وسائل الإعلام رأس حربتها في عصرنا الراهن، لتحقيق الأهداف المرجوة، تلاعب بالسلع وتلاعب بالهويات[1]!

تستخدم وسائل الإعلام العولمية في عصرنا الراهن الثقافات المحلية والهويات الإثنية لتوسع أسواقها، وتبيع رموز هذه الثقافات كسلع، وبالتالي تساعد على تشظي العالم وتفككه.

أما فيما يتعلق بدور الإعلام في تشكيل الحقائق الاجتماعية وصناعة الرأي العام، يمكن القول: شهد القرن الماضي منذ بدايته وحتى أفوله ولادة معظم ما يسمى حالياً وسائل الاتصال، بداية بالهاتف والسينما والراديو، ومن ثم التلفزيون، ونهاية بالكمبيوتر والتليفون المحمول، والأقمار الصناعية والكيبل، وتكنولوجيا الألياف البصرية.

كما شهدت بداية القرن الحادي والعشرين ولادة تكنولوجيا اتصال جديدة لا تجمع فقط بين قدرات الوسائل السابقة، وإنما تضيف إليها قدرات أخرى، مكنتها من إعادة اختراع الأشياء كما أتاحت إمكانية تغيير الطريقة التي تصنع بها الأشياء، بحيث أصبح الفرق بين التليفزيون والكمبيوتر الشخصي والهاتف الجوال، شبه منعدم بفعل الانصهار التكنولوجي الذي جعل بإمكاننا حالياً مشاهدة الرسائل الإخبارية والصور التلفزيونية على هواتفنا المحمولة وعلى حواسبنا الشخصية، إضافة لإرسال الرسائل والأغاني والفاكسات، وممارسة ألعاب

[1] نهلة عيسى، **أثر تكنولوجيا التعبير المرئي على محتوى الصورة التلفزيونية في الفضائيات العربية**، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الإعلام، شباط/فبراير ٢٠٠٦، ص٧٣-١٠٥.

الفيديو وسماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام والفيديو كليب، فانهارت الحدود الفاصلة بين الصناعات ومنتجاتها، وتغيرت طبيعة وسائل الاتصال مما كان له تأثيرٌ كبيرٌ ليس فقط في الجمهور، بل أيضا في الاتصالات نفسها، وفي ما تبثه من برامج لم يعد من الممكن أن تقدم بالقوالب السابقة ذاتها.

ذلك إلى أن التقدم التكنولوجي الهائل قد خلق أسواقاً جديدة أمام وسائل الإعلام لاستيعاب منتجاتها، إذ أصبحت الصورة تسيطر بطريقة رمزية على عصرنا الراهن، مما ولد اعتماداً متبادلاً بين وسائل الاتصال للحصول على مادة البرامج ومضامينها، فالتلفزيون –على سبيل المثال– يعرض أفلاماً سينمائية وتسجيلات غنائية، عناوين الصحف، معارض فنية، أغاني مصورة، مسابقات، ألعاب رياضية و مواد كثيرة أخرى، وقد خلقت هذه المراجع المتداخلة التي دائماً ما تشير إلى غيرها وتتصل بغيرها مجالاً بصرياً ولغوياً يتسع بلا توقف، وبات يُعرّض وسائل الإعلام للهجوم عليها بأنها "أصبحت بشكل متزايد تعرض قدراً أقل من المعنى في صورة معلومات أكثر"[٢].

وقد كانت السينما بصفتها وسيط اتصال يجمع كل عناصر الاتصال المنطوق والمكتوب والمرئي في وعاء إنساني واحد يمكن أن يفهمه جميع الناس، أول من لفت نظر العلماء للبحث عن لغة شاملة تخرج عن حدود النص اللغوي وتقييداته، ثم جاء التليفزيون ليحول هذه اللغة الشاملة من مجرد تجربة منفردة يتأثر بها البشر لساعات محدودة في قاعة مظلمة إلى تجربة إنسانية عامة يتعرض لها الإنسان كل يوم وفي أي مكان ويتفاعل معها إلى درجة التماهي والتوحد أحياناً.

وإذا كانت دراسات التأثير قد أشارت إلى أنه لا يبدو أن لوسائل الإعلام المعاصرة تأثيرات مباشرة في الجمهور، بل هي ليست سبباً ضرورياً وكافياً لحدوث هذه التأثيرات، وإنما مجرد مؤثر يعمل مقترناً بمؤثرات أخرى في ظل وضع عام، إلا أن دراسات كثيرة أكدت فاعليتها على نحو لا يمكن نكرانه عندما يتعلق الأمر بتكوين تصورات الناس عن الواقع اليومي، بل إنه في كثير من الأحيان وفي معظم الأوساط الاجتماعية، باتت امتداداً للحواس الإنسانية، وبديلاً للتجربة الموضوعية المباشرة، كما باتت تحدد مواقف واتجاهات الجمهور إزاء بعض القضايا، تحديداً الجريمة والجنس والحروب وقضايا التمييز الجنسي أو العرقي أو الأيدلوجي.

كما أنَّ هذه القضايا تؤكد "الأيدلوجية المهيمنة"، أو ما يسميه (Madrid) الطلب السياسي والثقافي لاستمرار الحداثة التي حولت كل وسائل الإعلام بمحتواها إلى سوق كبير لبيع الأفكار والقيم والمنتجات، والإعلاء من شأن الحياة الاستهلاكية في كل مكان في العالم، مع التركيز على الطبيعة الإغوائية لهذه الحياة، عبر صورة مركبة تؤطر فيها السلع، وتعرض لإثارة المستهلك، ولتحويل فعل الشراء (الشراء التجاري والسياسي والحضاري-

[٢] المرجع السابق، ص٢٣٧-٢٩١.

أي كل شراء) إلى حدث رمزي لتحقيق مكانة اجتماعية أو مصلحة سياسية أو اقتصادية، بغض النظر عن الانتفاع بالسلعة وبغض النظر عن الثمن، حتى لو كان دماء ودولاً[٣].

والحقيقة أنَّ هذا يعني مفهوماً جديداً لـ "أسلوب الحياة، ومعنى القوة"، يدعم صورة الذات ويلغي ويقصي الآخر، إذا كان هذا الآخر سينال من جمال الواقع كما تقدمه وتوزعه صور وسائل الإعلام، كما يطلق العنان للتعبير عن الغرائز والرغبات بما يشبه "الأورجازم" السمعي البصري بصفته سقف الفعل الإنساني في عصر العولمة، وبشكل لا يسود فيه نموذج ثقافي على آخر (ظاهراً وليس واقعاً)، مما يعكس نوعاً من التمفصل والتلاحم بين الكوكبي (الكوني) والمحلي (الوطني)[٤].

ولعل التطور التكنولوجي الهائل، ساعد وسائل الإعلام على صناعة الواقع (وليس نقل الواقع)، بالاعتماد على العوالم الافتراضية التي تقدم واقعاً وفضاءً فائق الواقعية، لا يمكن دحضه ولا نفيه ولا التشكيك به، وهو الأمر الذي لابد أن يقودنا إلى التفكير: هل وسائل الإعلام بممارساتها ومرجعياتها وإمكاناتها الحالية شكلت ميداناً لانتعاش قيم النسبية الاجتماعية والحتمية الثقافية، واستحالة التحديد، مما شكل وعاءً حاضناً للتكيف الثقافي العالمي والإيمان بإيجابية الاختلافات بين البشر بعيداً عن تسييد نموذج ثقافي وحيد على أنه الأعلى والأهم والمهيمن، أم أن القيم ذاتها كانت حائط صد أمام عملية التكيف، لأن كل جماعة إنسانية أضفت المعنى الذي تريده على المعلومات والأحداث، مما قاد ويقود إلى موقفين لا ثالث لهما: الانكفاء والعزلة والرفض، أو الانصياع والتبعية وتبني أجندة ضد وطنية.

ساعد التطور التكنولوجي الهائل، وسائل الإعلام على صناعة الواقع بالاعتماد على العوالم الافتراضية التي تقدم واقعاً وفضاءً فائق الواقعية، لا يمكن دحضه ولا نفيه ولا التشكيك به.

هذا إلى أنه كيف يمكن حقاً أن تُعدّ وسائل الإعلام عامة والوطنية خاصة معنيّةً بواقعها الراهن، (وهو واقع لم يستطع، رغم كل النوايا الحسنة مواكبة الأحداث المتفجرة على الساحة الوطنية)، وقادرةً على التأثير في الجمهور، بحيث تدفعه لتبني قيم ومفاهيم وأساليب عيش وعمل وسلوك يمكن أن تصب على نحو إيجابي في عملية إعادة البناء الثقافي الوطني وتدعيم النسيج الوطني المستند إلى إرث حضاري استوعب وتمثّل كل ثقافات العالم قديمها وحديثها، وفي حال كان ذلك ممكناً، ما هي أدوات الإعلام الوطني لتعزيز ذلك؟

---

[٣] محمد حسام الدين إسماعيل، **الصورة والجسد – دراسات نقدية في الإعلام المعاصر** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠٠٨)، ص١٥٤-١٦٧.

[٤] المرجع السابق، ص١٦٩-١٨٠.

أسس الوهم

خلافاً لما هو متصور ومتوهم، ليست وسائل الإعلام على تلك الدرجة الرهيبة من القوة، بحيث تكون قادرة على إحداث تأثيرات مؤكدة ومباشرة في الجمهور في ما يتعلق بالقضايا التي تتبناها، إذ يؤكد كثير من الدراسات الإعلامية أنه بالرغم من أن حافز الاتصالات ثابت، إلا أن هناك العديد من العوامل الاجتماعية والسياسية والعرقية والدينية تعمل بمثابة متغيرات وسيطة، تحدد –وربما تحد– إلى حد كبير مدى درجة تأثر الجمهور بالرسائل الاتصالية واعتناقها والاقتناع بها، ذلك لأن نبع المتغيرات الوسيطة الذي يبدأ بميول الجمهور ومرجعياته المختلفة، وطبيعة الانتقاء الذاتي والإدراك الانتقائي لديه، وليس نهاية بصدقية المصادر لدى الجمهور، والطبيعة السياقية للرسائل الإعلامية، والجوانب الاجتماعية والثقافية أثناء التعرض لوسائل الإعلام، كلها عوامل تجعل من عملية التأثير الاتصالي مجرد عامل من بين سلسلة عوامل تحدد طبيعة استجابة الجمهور للرسائل الاتصالية، وهو أمر يجعل هذه الوسائل مجرد رافد مسبب للتأثير، لكن عبر جملة من التأثيرات الوسيطة.

تعد لغة الإعلام المعاصر عامة، والتلفزيون خاصة، لغة الشفرات الواسعة الانتشار، أي لغة يتعلمها الجمهور، بوساطة الخبرة وليس على نحو مقصود، فهي تتصف ببساطة بنيتها واستخدامها أعرافاً وصيغاً قياسية ونمطية (steretypes) تصل أحياناً حد الكليشيهات (cliches) التي يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير، لاحتوائها على ما يسميه العلماء "الفائض عن الحاجة" (Redundancy)، ولذلك فهي تتسم بأن عناصر عديدة فيها تسهم في تأكيد المعاني المرجوة وتتصف بخاصية التناص إلى حد بعيد مع ثقافات متعددة رغم ابتعادها إلى حد ما عن التشابه الحرفي أو الإشاري.

إلا أن الخاصية الرمزية الكامنة فيها، إضافة إلى صفاتها الأيقونية التصويرية وتأكيدها على قيمة الدال على حساب قيمة المدلول، يساعدها على استخدام السياق الاجتماعي الثقافي المحلي كحامل للدلالة لترويج مدلول ونمط ثقافي غريب، بعيداً عن المرجعيات الاجتماعية والثقافية للدال المعلن والظاهر، خاصة وأن شكل التعبير قائم على قواعد استبدالية تدفع المشاهد لتأويل النصوص والصور وفقاً للتمدد المجازي للعناصر الدلالية والبصرية الرئيسة فيها، وإسقاط ذلك على كافة العناصر الأخرى، إذ تنتقل من الرئيس إلى ما يحيط به بوصفها امتداداً له، ويصبح بالتالي قابلاً لفاعلية التقليب والتنميط كما العنصر النجم تماماً، مما يعني أن هناك كثيراً من عوامل تغييب الحقيقة، وتزييف الوعي و إفقاد اليقين في صدقية ما ينشر ويعرض، مما يقلل من فرص التأثير والإقناع والتجييش، مهما عظم الهدف، ورغم نبل القضية[٥].

[٥] نهلة عيسى، **أثر تكنولوجيا التعبير المرئي على محتوى الصورة التلفزيونية في الفضائيات العربية**، مرجع سابق، ص٣٤٣-٣٥١.

أسس الحقيقة

رغم أن وسائل الإعلام هي رافد مسبب للتأثير ضمن روافد متعددة، إلا أن هناك كثيراً من المؤشرات التي تؤكد أنها تتمتع بصفات تميزها عن العوامل المؤثرة الأخرى، مما يجعل تأثيراتها مميزة. هناك ظروف اجتماعية وسياسية، ومراحل تاريخية وزمنية معينة يمكن أن تجعل من وسائل الإعلام واحدة من أهم أدوات التغيير الاجتماعي والسياسي، في حالتين، إما أن تكون العوامل الوسيطة غير فاعلة ويكون تأثير وسائل الإعلام مباشراً، أو أن تكون العوامل الوسيطة ذاتها التي تساند التعزيز عادة، هي نفسها التي تضغط من أجل إحداث التغيير. وهي حالة تنطبق إلى حد كبير على واقع الحال الوطني، مما يعني تأثيراً مؤكداً لوسائل الإعلام في تغيير المزاج الوطني، وتوفير أرضية مشتركة للخطاب السياسي والاجتماعي، لخلق ديناميكية تصب في مصلحة تعزيز البنية الثقافية الوطنية.

التغطية الإعلامية العربية والدولية للحرب على سورية: موت الواقع وصناعة الأساطير

سيجدُ المتتبع الجاد لصور معظم الفضائيات العربية والغربية على اختلاف مرجعياتها الوطنية والسياسية والاقتصادية، أن الكم الهائل من الصور التي بثت عن سورية منذ بداية الأحداث فيها (آذار/مارس ٢٠١١) تتناقض ليس فقط مع الواقع، بل أيضاً مع بعضها بعضاً، ويتجلى ذلك في البرامج الحوارية والدينية والإخبارية التي سادتها اللاعقلانية والغوغائية والذاتية وبيع الرموز الوطنية والتاريخية والدينية وتحويلها إلى سلعة تبيع سلعة، في محاكاة شبه كاملة لمثيلاتها في الفضائيات الغربية.

كما سيُلاحظ التطور الوهمي الخادع لمسار الأحداث، والتوجيه المبرمج، أو القولبة التي فرضتها وسائل الإعلام العربية والأجنبية على عقول المشاهدين فيما يتعلق بالموقف المأمول منهم تجاه ما سمي بـ ("ربيع سورية"، في إطار من المغالاة الإعلامية والضجيج البصري غير المسبوق عالمياً، إذ تحول الموت في سورية من طقس يستدعي كل مشاعر الحزن والجزع الشخصي والوطني، إلى مصاب جاهز (take away)، في متناول أيدي مشاهدي العالم دون أن يكون لدى معظمهم أدنى فكرة عما يجري ودوافعه والمتورطين فيه.

وقد حولت وسائل الإعلام الحدث السوري، إلى حدوتة شعبية بالمعنى التخيلي للكلمة، بلد صغير جميل، وشعب طيب مسالم مقهور خرج للدفاع عن حريته وكرامته في وجه "طاغية لا يرحم"، وهكذا بدت سورية وكأنها سندريلا التي تقاسي من زوجة أب شريرة، وبدا الشعب السوري وكأنه بطل من أبطال أفلام "وولت ديزني"، كل ذلك في إطار من العولمة الانفعالية، واللهاث البصري التنافسي والمجاراة الإعلامية، وتجارة الأخبار، بغض النظر عن أي صدقيّة أو ميثاق شرف إعلامي.

بل بلغت المنافسة المسعورة على النبأ العاجل المثير من سورية حداً، أصبحت فيه الزلات والأخطاء (الفبركات الإعلامية غير المعدة جيداً) يومية، دون أي حياء، أو خجل، أو إحساس بالمسؤولية الأخلاقية، ومع طول زمن الأزمة، تضاعفت المزايدات بإلحاح عجيب، وظهرت حالة أقرب للسعار الإعلامي، وصلت فيها المحاكاة المخزية بين وسائل الإعلام حدها الأقصى، بحيث تحول الشأن السوري إلى خبر شبه وحيد ومهمين على معظم الشاشات العربية والأجنبية، وتحول مُدّعو المعرفة به إلى نجوم بأهمية نجوم هوليوود.

وهكذا تلاشى الواقع وتلاشت الحقائق، من صور التلفزة والانترنت، وحل محلها واقع فائق الواقعية، مصنوع وفقاً لشروط الفرجة التلفزيونية، وأصبح مثل كرة الثلج يتوالد ذاتياً، ويتدحرج بعيداً عن الحقيقة الموضوعية، قريباً من الحقيقة التلفزيونية، فيه كل عوامل الإثارة والتهييج الذاتي، عبر مسار حلزوني يثير الدوار، والحماس، والانفعال إلى درجة الغثيان، كما يثير الحس الديني الساذج (الإنجيلية التلفزيونية) لدى البشر بالحلم بالتغيير، ما دامت تبعات هذا التغيير لن تمس استقرار حياتهم هم، وإن مست حياة ملايين غيرهم.

فالصورة سلطانة، ودحضها ونفيها صعب إن لم يكن مستحيلاً، ووفرتها تجسيد فعليّ لغياب المعنى، مع الإيهام باستيفاء المعنى، ولذلك فآليات التضليل لم تعد تعتمد على الحذف والقص والاجتزاء كأدوات للتأثير، بل أصبحت تعتمد على الوفرة والغزارة والتراكمية، بشكل يزيد عن حد الكفاية، ويبلغ درجة كبيرة من الإشباع تصل حد التخويف من المعرفة، والشطط في معالجة الأحداث بعيداً عن الجوهر.

وأظهرت الحرب على سورية تجاوزات الصورة بشكل غير مسبوق، بدايةً بالتزوير، أو اللجوء إلى الأرشيف وادعاء آنيته، مروراً بزراعة الصور في سياقات بصرية لا تمت إلى أصل الصورة بصلة، ونهاية باختلاق مشاهد بالكامل وتمثيلها، أو تصميمها باستخدام تقنيات الجرافيك، والاستعانة بهواة تصوير ومراسلين هواة لنقل والتقاط الأحداث والصور، خلافاً للواقع وادعاء تسجيلها لحظة وقوعها[٦]. مما حول الواقع إلى مجاز، تمت فيه صناعة واقع فائق الواقعية، خلافاً للعديد من الوقائع الموضوعية، وتم تسويقه عبر وسائل الإعلام بصفته واقعاً، تحول بفعل آليتي الإلحاح والتكرار إلى واقع، تم تبنيه والعمل وفقاً لآلياته التي تفتقر إلى الكثير من الصدقية، وتعتمد في تشكلها وتجسدها وتحديدها على المرويات والشهادات المرسلة، والوقائع المقتطعة من سياقها الحقيقي، وهو أمر يبيح تسمية ما حدث ويحدث على كافة المستويات، خاصة ببعده الإعلامي، بصناعة الأساطير.

أظهرت الحرب على سورية تجاوزات الصورة بشكل غير مسبوق، بدايةً بالتزوير، مروراً بزراعة الصور في سياقات بصرية لا تمت إلى أصل الصورة بصلة، ونهاية باختلاق مشاهد بالكامل وتمثيلها، أو تصميمها باستخدام تقنيات الجرافيك...

[٦] نهلة عيسى، "الحرب على سورية – موت الواقع وصناعة الأسطورة"، محاضرة مقدمة إلى: **إعمال مؤتمر الإعلام العربي الأول**، دمشق، كانون الثاني ٢٠١٤.

صناعة الأساطير في الحرب على سورية

الحقيقة أن سورية تعرضت لـ "تام تام" (جوقة طبول) كوني بصري، شارك فيه كثيرون، وكان فيه ضرب من التواطؤ في صنع الأكاذيب، وهو تواطؤ لم يبدأ مع بداية الأحداث كما قد يظن كثيرون، بل بدأ قبل ذلك بسنوات، عندما بدأت أموال الخليج تستغل نجاح وشعبية الدراما السورية، فسعت لإنشاء شركات إنتاج تلفزيوني، ومن ثم استقطاب الكتاب والمخرجين والممثلين السوريين لتفرض عليهم موضوعات بعينها ونجوماً بالاسم تحولوا فيما بعد (عندما آن الأوان)، إلى ثوار ودعاة حرية وفقاً للأجندة الخليجية.

وقد أسهمت الدراما السورية عن قصد أو غير قصد، في تشكيل صورة ذهنية سلبية عن المجتمع السوري، مهدت الطريق –فيما بعد– لتصديق كل الأكاذيب التي بثتها وسائل الإعلام العربية والأجنبية عن الأحداث في سورية.

- دأبت الدراما السورية في السنوات العشر الأخيرة (السابقة على الحرب فيما أسمته دراما توثيقية)، على تصوير المجتمع السوري على أنه مزيج من الفاسدين ومستغلي السلطة واللاأخلاقيين، وأظهرته كبؤرة للطغيان، البقاء فيه للأقوى والأكثر فساداً، ولا أمل لضعيف أو فقير أو شريف في حياة كريمة بين جنباته، وهذه أولى الأساطير التي شكلت طلعة الطيران الأولى في الحرب الإعلامية على سورية تمهيداً للحرب الأشرس التي رافقت الأحداث، وطالت البشر والحجر والشجر.
- ثانية الأساطير، تمثلت في الأسلوب الذي قدمت فيه الأخبار عن سورية، إذ عمل وفق آلية درامية (دراما تورجيا)، تحولت فيه الأحداث إلى ميلودراما تتلاحق فيها المفاجآت، وتتقلب الأجواء ويتغير الممثلون، في خليط عجيب ومضلل من الأنواع الإعلامية المتداخلة، تدور كلها حول نغمات محورية معينة: رئيس وجيش وعملاء يقتلون شعباً أعزل!!

ذلك إلى أنه تم حجب المعلومات الحقيقية والواقع الموضوعي عن الشاشة، وتمحور الاهتمام حول كيفية سرد الحكاية، إذ إنَّ مقدمي الأخبار باتوا أقرب للمعلقين الرياضيين، دورهم ليس استجلاء الحدث وتفسيره وتبيانه، بل دورهم دفع المشاهدين للغرق في تعقيدات الصور، بزعم أنها تنقل التاريخ الإنساني وهو في طور حدوثه ؟!

- ثالثة الأساطير، هي وهم النقل المباشر، أي المسارعة فور وقوع حدث في مكان ما، إلى الاتصال بأي شخص في مكان الحدث ليقول ما لديه، حتى لو كان كذباً أو اختلاقاً، أو صوراً مجتزأة من الواقع، لأنَّ المهام ليس الحقيقة، بل وهم النقل من موقع الحدث وتأثيره الواقعي في

أسهمت الدراما السورية عن قصد أو غير قصد، في تشكيل صورة ذهنية سلبية عن المجتمع السوري، مهدت الطريق لتصديق كل الأكاذيب التي بثتها وسائل الإعلام العربية والأجنبية عن الأحداث في سورية.

المشاهدين لتأكيد صدقية مزعومة بغض النظر عن معيار الصدق. وبهذا الشكل، أصبح الانفعال واقعاً، حتى لو كان لا علاقة له بأي واقع. ولذلك أصبحت وسائل الإعلام ترسل المراسلين وتجند الصحفيين في المناطق الساخنة، ليس لنقل الحقيقة، بل للإيهام بها، أو بعبارة أدق لإعادة إنتاج الأحداث عبر صور بعيدة ومهتزة ومشوشة وملتبسة، وفقاً لمصالح مرجعيات وسائل الإعلام وأجنداتها.

- رابعة الأساطير، هي اختلاق صورة الخبير والمحلل النبيل صاحب القضية والمعلومة، اللذين حولتهما الفضائيات العربية والأجنبية (فيما يتعلق بالشأن السوري)، إلى رسل أو عرافين لا يأتيهم الباطل من أمامهم أو خلفهم، تستشيرهم وسائل الإعلام، ويتابعهم المشاهدون وهم يستعرضون خبراتهم في جو هوليوودي فيه كل الوسائط المساعدة (فيديو وول وغيره)، ليحتلوا في عقول البسطاء مكانة المفكرين المعاصرين، والفكر منهم براء. لأنهم في واقع الحال مجرد حرّاس جدد مزعومين على الحقيقة الواقعية لصالح الحقيقة الإعلامية، إذ بات ما يجري في سورية هو حقيقة الـ ٢٥ كادراً في ثانية، أو أكذوبة ٢٥ كادراً في الثانية، وهي أكذوبة تقيم جسراً وهمياً بين الحدث أو صورة الحدث وبين عواطف المشاهدين، وهذا الجسر الوهمي الذي يتمثل بالخبراء والمحللين، يخلق تأثيراً خادعاً عن الحدث بعيداً عن ظروفه الموضوعية (مخيمات اللاجئين طوعاً، وعزمي بشارة وصفوت الزيات وغيرهما أمثلة واقعية حول الحقيقة الإعلامية)، وهذا ما يؤكد أن الأحداث الهامة لا تنتج صوراً في معظم الأحيان .
- خامسة الأساطير، صناعة المشهدية عن الشأن السوري عبر التزييف والاحتيال وصناعة أبطال وهميين ومجازر تقشعر لها الأبدان على لسان شخصيات واقعية مأجورة لرواية حكاية محبوكة في سيناريو مؤثر، بعيداً عن أي احترام للحقيقة، وأظافر أطفال درعا التي لم نرَ صورة لها، رغم أنها كانت الحجة الرئيسة في اندلاع ما سمي بـ "الثورة السورية"، وأسطورة "حمزة الخطيب"، والكيماوي ومئات القصص الإعلامية الأخرى على مدار أكثر من خمسة أعوام، دليل جلي على تسيد المشهدية في صناعة الأخبار في الحرب على سورية.
- سادسة الأساطير، هو ذلك التغييب شبه الكامل لمواقف وآراء الغالبية العظمى من الشعب السوري المدركة لحقيقة ما يجري على الأرض السورية والرافضة لجميع التدخلات في الشأن السوري، والداعية إلى الحوار الوطني سبيلاً وحيداً للحل، وتصوير هذه الغالبية في حال تم ذكرها على أنها مجموعة من (الشبيحة)، أي شيطنتها، في مقابل الاحتفاء المبالغ به، بل تسييد آراء قلة من الشعب السوري وإظهارها بحجم كمي أكبر بكثير من الواقع، والتعامل معها نيابةً عن الشعب السوريّ، خلافاً لإرادة و رغبات الشعب، وخلافاً لحقيقة قناعاته في هؤلاء المفروضين عليه كممثلين عنه.
- سابعة الأساطير، هو خلط الملفات، بمعنى دمج الوطني بالإقليمي بالدولي، وتغيير البوصلة، ليصبح العدو صديقاً، والصديق عدواً، وتتحول المشتركات والتعاقدات الوطنية إلى عبء على الانتماءات الاثنية والمذهبية والقومية، يجب التحلل منه، في إطار السعي للحصول على العدالة الاجتماعية، أو الخصوصية الثقافية، وهكذا أصبحت إيران ومن يواليها أعداء، وباتت إسرائيل حليفاً، ولم يعدْ الصلح معها مشروطاً بعودة الأراضي المحتلة، بل صار احتمالاً قائماً لدى مجموعات عديدة سياسية

وعسكرية (مسلحة) ممن تنتمي إلى صفوف المعارضة السورية (الائتلاف الوطني، مجموعة برهان غليون، جبهة النصرة، جيش الإسلام، ومجموعات مسلحة عديدة ممن يقاتلون الدولة السورية في جنوب البلاد).

إن اللهاث خلف الحصول على نصر سريع لصالح مجموعات مسلحة سورية هجينة، تعمل وفقاً لمخططات عربية وإقليمية ودولية، أدخل وسائل الإعلام العربية والدولية، رحى التسابق على صناعة الأكاذيب والأساطير بالشكل الذي يصعب حصره في هذه العجالة، كما أدخلها دائرة التجريم بتهم عديدة، لعل أفدحها تهمة المشاركة في سفك الدم السوري وتعريض الأرض السورية للتقسيم وربما الاحتلال، وهو أمر يضع تلك الوسائل والعاملين فيها تحت بند المساءلة القانونية والأخلاقية أمام المحاكم الدولية والوطنية، كما أدخل مهنة الإعلام برمتها دائرة الريبة والشك والتهافت الأخلاقي والقيمي والمهني، بعد أن اختلطت ثلاثية الإعلام الأزلية: إعلامي - حدث - مواطن، ليصبح المواطن إعلامياً، والإعلامي ناقلاً عن صحافة المواطن، والحدث سجالاً بينهما، والحقيقة في منأى عن كليهما[٧].

التغطية الوطنية للحرب على سورية: الباستيش والفصام الثقافي

يُلاحظ في إطار سعي (أو تعثر) الإعلام الوطني السوري في الوصول إلى حالة إعلامية وطنية ذات صدقية، أنه قفز إلى محاكاة الرسائل الإعلامية، التي يبثها الإعلام العربي والدولي المشارك في الحرب على سورية، من حيث الشكل والأسلوب، في باستيش (مزج) بدا تقليداً هزيلاً بلا محتوى، لأنه لا يستند إلى الأهداف والنزعة الموجّهة نفسها نحو المعنى المرتبط بالأهداف التي حددت شكل صور ومسامع ونصوص رسائل الإعلام العربي والدولي، مما شكل خطاباً إعلامياً مفككاً، لا رابط متسلسلاً فيه، مع انقطاع الذات المؤقت، وغيبة الهوية الشخصية، وتجلى ذلك في:

١. المتتبع الجاد لنصوص وأصوات وصور معظم وسائل الإعلام الوطنية على اختلاف مرجعياتها الفكرية والسياسية والاقتصادية، سوف يجد أن الكم الهائل من الرسائل الإعلامية التي تنشر وتبث وتعرض في وسائل إعلامنا الوطنية عن سورية منذ بداية الأحداث فيها (آذار/مارس ٢٠١١) تتناقض ليس فقط مع الواقع، بل أيضاً مع بعضها بعضاً، كما تتناقض مرجعياتها الفكرية، تحديداً في ما يتعلق بالإعلاء من قيمة الأنساق المغلقة والخطابات الكلية وتفسير كل شيء من منظور القوة، وتغليب الذاتي على الموضوعي الوطني، والخطابات ذات

قفز الإعلام الوطني السوري إلى محاكاة الرسائل الإعلامية التي يبثها الإعلام العربي والدولي المشارك في الحرب على سورية، من حيث الشكل والأسلوب، في باستيش (مزج) بدا تقليداً هزيلاً بلا محتوى، مما شكل خطاباً إعلامياً مفككاً.

[٧] المرجع السابق.

المقاس الواحد على حساب خطاب يراعي الخصوصيات والحساسيات ويلائم ويحتفي بالمشتركات، دون تحويل الخصوصيات إلى عصاب وهوية (حوار ما يسمى الآن بالعشائر تمثيلاً لا حصراً، وهو في جوهره خطاب ضد الوطنية).

٢. يتقاطع الخطاب الإعلامي الوطني (غافلاً) في العديد من عناوينه العريضة التي تؤكد على الهوية والخصوصية واستحالة التحديد، مع نفس ما روجت له وسائل الإعلام العربية والدولية في حربها على سورية، ويتجلى ذلك بصرياً في البرامج الحوارية والبرامج الدينية والبرامج الإخبارية التي سادتها اللاعقلانية والغوغائية والذاتية وبيع الرموز الوطنية والتاريخية والدينية، وتحويلها إلى سلعة تبيع سلعة في محاكاة شبه كاملة لمثيلاتها في الفضائيات العربية والغربية، وبأسلوب يعكس خطابية مكثفة ووطنية هشة أو رقيقة، كما يعكس غياب استراتيجية إعلامية وطنية للتعامل مع الأحداث بأبعادها المختلفة سعياً باتجاه استحضار الغد، وليس فقط تحقيق الفوز اليوم.

٣. عكس الخطاب الإعلامي الوطني نوعاً من الفصام الثقافي الذي يغيب الهوية والذات الوطنية، وكسوف النمط البطولي وخديعة الحقائق الكبرى، ويتحدى المعايير والكودات الجمعية السائدة في المجتمع، بل يناقضُ كثيراً النصوص المكتوبة المرافقة لهذه الصور، مما يوحي بأن الصور تأتي كمعادل بصري فوق رقابي لكلمات تلتزم حدود الاتفاق الجمعي (الآني وليس الوطني) المهيمن، وهو معادل يشبع أحلام جموع كبيرة من المشاهدين والمستمعين والقراء، ويشكل مجازاً أسطورياً نصياً وبصرياً، يخفف من قسوة وإحباطات اليومي والمعاش، ويحافظ على الواقع بصفته خياراً سيئاً ومعتاداً وبديلاً عن مجهول غير مأمول أو مسيطر عليه[٨].

٤. عكس الخطاب الإعلامي الوطني توجُّه السُّلطة، سواء أكان ذلك في خطابها النصي، أم في المعادل البصري الموضوعي للنص، مما أفقدها الكثير من الصدقية (رغم توافرها)، وأضعف قدرتها على التأثير في مناخ محتقن، أهم شعاراته المعلنة، المطالبة بتغيير السلطة في جانب، وفي جانب آخر تحميل السلطة المسؤولية عما يجري!

[٨] نهلة عيسى، "تقنيات تحليل الصورة" (دمشق: وزارة التعليم العالي، الجامعة الافتراضية، ٢٠١٦)، ص١٣-١٧.

ملاحظات منهجية نحو إعلام وطني أكثر فعالية

يُفضي التأمّلُ في المعطيات السلبيّة المذكورة سابقاً، إلى اكتشافِ أنها قد أسهمت إلى حدٍّ كبير، في خلقِ هُوّةٍ بين الدولةِ ومجموعاتٍ لا يُستهانُ بها من المواطنين، من جهة، وزرعت الفُرقة بين الفئات الاجتماعية، من جهة أخرى. وبذا يصيرُ نشر مفاهيم اجتماعيّة وثقافيّة جامعة ذات تأثير حقيقيّ في الشعب السوريّ مهمةً غير يسيرة وليست طوع البنان، ذلك أنَّ جزءاً من خطة شن الحرب على سورية، كان التشكيك في الرموز الوطنيّة والمؤسسات، وفي مقدمتها وسائل الإعلام الوطنيّة.

واستناداً إلى دراسات إعلامية هناك معلومات تؤكد أن عدد ساعات جلوس الأطفال والشباب أمام وسائل الإعلام، كانت ضعف عدد ساعات جلوسهم على مقاعد الدراسة في مدارسهم وجامعاتهم، وأكثر من ضعفي عدد ساعات جلوسهم مع ذويهم وأقرانهم في الحياة الواقعية[٩].

لقد بات من الأهمية بمكان، التوظيف الأمثل لوسائل الإعلام الوطنية، وما تملكه من إمكانات تكنولوجية وفنية فعالة ومؤثرة، من أجل العمل على خدمة قضية التدعيم الثقافي، وتعزيز الهوية الوطنية؛ لكن لن يتأتى ذلك إلا عن طريق عرض أو صياغة تعريف محدد لمفهوم "الهوية الوطنية"، يحدد معاني وملامح وسمات المفهوم، بالاستناد إلى مبادئ الدستور، وروح المشتركات الوطنية، ورمزية الالتزام الأخلاقي والاجتماعي والوطني، وبما يوحي ويضمن ويؤكد أهمية مشاركة الجميع، مؤسساتٍ وأفراداً في هذه العملية دون أدنى تفرقة أو إقصاء.

ويُرد ذلك إلى غياب تعريف متفق عليه على المستوى الوطني (وعبر الحوار في قنوات الاتصال الاجتماعية المباشرة وغير المباشرة، أحزاب، نقابات، مؤسسات مجتمع مدني، مدارس وجامعات ... إلخ) يكونُ محدداً بدقة لمفهوم المواطنة، يخلق حالة من البلبلة واضطراب الرؤية وفقدان البوصلة لدى وسائل الإعلام والجمهور الذي تخاطبه فيما يتعلق ليس فقط في تحديد الأولويات، لكن أيضاً في تحديد المسؤوليات والسبل والأدوات لتحقيق الأهداف.

كما أنَّ لوسائل الإعلام دوراً كبيراً في عملية الوصول إلى مثل هذا الاتفاق الجمعي في حال تحملت مسؤولياتها الاجتماعية، وقامت بوظيفتها الوسيطة كصلة وصل بين الحاكمين والمحكومين على الوجه الأمثل، بحيث تشكل قوة دافعة للمشاركة في الحوار الوطني، وتحثُّ المواطنين على تبني اتجاهات إيجابية تتماشى مع الاحتياجات الوطنية للتغيير والتعمير.

[٩] المرجع السابق، ص٢١-٢٦.

تسويق المفهوم والسلوك

ينبغي إعادة النظر فيما يقدم في تلك الوسائل، ومحاولة توظيف المادة الاتصالية التوظيف الأمثل بما يعمل على تغيير الاتجاهات والأفكار السائدة عنها وعن الأحداث الجارية لدى أفراد المجتمع، بوساطة اعتماد الشفافية الوطنية منهجاً، وتقديم توصيفٍ واقعيّ للتحديات الراهنة. ويكون ذلك عن طريق وضع استراتيجية إعلامية وطنية تقوم على خطة مدروسة تهدف إلى تغيير الصور السلبية عن الإعلام الوطني، وتعلي من روحية الوفاق الاجتماعي وقيم المواطنة، كما تقلل الفجوة الحادثة بين المواطنين ومؤسسات الدولة، وتقوم على الأسس الآتية:

١. النظر إلى قضية تجديد (هيكلة) البنية الثقافية الوطنية (وأهمها الخطاب الثقافي الخشبي المجرد والمغرق في العموميات)، عبر إطلاق تيارٍ طازجٍ وحرٍّ من الأفكار على مخزون عاداتنا وتقاليدنا وأفكارنا لمواجهة صعوباتنا الراهنة، كجزء لا يتجزأ من عملية التعافي الوطني، وتجنب الفصل التعسفي بين الشأن العسكري والشأن المدني بكل تفرعاته ذاتاً ودوراً، ذلك أنَّ جزءاً كبيراً من الحرب على سورية، كان ذا طابعٍ ثقافيٍّ وحضاريٍّ، مع أهمية تأكيد فكرة أن الدورين يجب أن يترافقا ويتكاملا معاً للخروج بالوطن من عنق تحدياته الوجودية، ولتحقيق النصر، والحفاظ على استقلال الوطن ووحدة أرضه وشعبه.

٢. العمل على تغيير المناخ الفكري والمزاجي والثقافي السائد عن أن الحرب طويلة، وأنه من غير المجدي السير في عملية إعادة الهيكلة القيمية والثقافية في ظل استمرار الأعمال العسكرية، بوساطة إبراز صور إيجابية تؤكد أن المناعة الوطنية تستند إلى أهمية استمرار التساؤل والبحث عن الإجابات والحلول للهشاشة غير المتوقعة في النسيج الوطني كجزء من عملية التصدي والصمود بهدف تحقيق النصر. إذ من شأن ذلك، تعزيز ثقة المواطنين بالتعاقد الوطني المبرم، وبالنصر، وتعزيز ثقة المواطن بنفسه وبالمؤسسات الوطنية وقدرتها على الصمود في هذه الحرب غير العادلة.

يجب وضع استراتيجية إعلامية وطنية تقوم على خطة مدروسة تهدف إلى تغيير الصور السلبية عن الإعلام الوطني، وتعلي من روحية الوفاق الاجتماعي وقيم المواطنة، كما تقلل الفجوة الحادثة بين المواطنين ومؤسسات الدولة.

٣. ربط عملية إعادة الهيكلة الثقافية الوطنية بتأكيد استقلالية القرار الوطني، وإرادة الشعب السوري وتطلعاته ورغباته، وهو أمر يدعم روح المبادرة الوطنية، ويحفز روح المسؤولية والرغبة بالمشاركة في صنع القرار على المستوى الوطني.

٤. العمل على أن يكون الإعلام انعكاساً لواقع حال الوطن والمواطنين، بشكل يردم الهوة بين الإعلام الوطني والفئات الاجتماعية المختلفة التي لا تجد في وسائل الإعلام الوطنية أدنى انعكاس لحياتها وواقعها والقضايا الجوهرية التي تشغل بالها، مما يجعلها غير معنية ومهتمة بالرسائل الإعلامية، ومما

يفقد الوطن مشاركة مجموعات لا يستهان بها في إحداث التغيير المنشود للنهوض بالوطن من كبوته الحالية.

٥. لكي تحقق وسائل الإعلام الوطنية الدور المنوط بها في تعديل الاتجاهات و تحفيز المشاركة الوطنية في إعادة الحوار الوطني حول المشتركات الحضارية والثقافية والسياسية والاقتصادية، يجب النظر الى وظيفة الاتصال ليس بوصفها إخباراً وترفيهاً فقط، بل بوصفها أيضاً وظيفة ثقافية معرفية، مهمتها الأولى ترسيخ القيم الايجابية بهدف إحداث التنمية الاجتماعية، وأيضاً القضاء على التناقض الفادح بين الرسائل الإعلاميّة ومبادئ الدستور الوطني التي تنص على المساواة الكاملة بين جميع المواطنين، بينما يروّجُ كثير من الرسائل الإعلامية (خاصة الدرامية) لمفاهيم إقصائية، سواء أكان ذلك على مستوى النوع، أم الدين، أم الأيدلوجيا... إلخ.

٦. يجب أن تقوم وسائل الإعلام بدور فعال في تخفيف الاحتقان الوطني، والتخفيف من لغة العنف والتحقير والتصنيف، وتنقية أسلوب الخطاب المستخدم من العبارات غير الملائمة، وتحسين أسلوب التفاعل الاجتماعي بين جميع فئات المواطنين بالتأكيد على المشتركات الوطنية، والتقاطع في الفروق، وعدّ الاختلافات مصادر غنى حضاري، وليس مصادر خلاف.

٧. العمل على تجنب التعارض والتضاد والالتباس في الرسائل الإعلامية بحيث لا تظهر الصورة ونقيضها في وسائل الإعلام (والدراما السورية ودورها الخطير في شرعنة الخراب الوطني أكبر مثال على ذلك)، بوساطة إتباع استراتيجية هادفة إلى التنسيق بين كافة مؤسسات الدولة بما فيها الإعلامية لتحقيق الهدف المنشود، وإلا سيذهب هذا التعارض بكل جهود بناءة تعمل لأجل إعادة اعمار الهوية الثقافية الوطنية أدارج الرياح.

٨. تكثيف الرسائل الإعلامية عامةً، وخاصة في المناطق الأقل تحضراً والأكثر تضرراً من الأحداث، وتحديد وسائل الإعلام الأكثر قبولاً ومتابعة في هذه المناطق، لخلق قناة اتصالية يمكن من خلالها بث الرسائل التي تعمل على رفع مستوى الوعي وتغيير الاتجاهات نحو دورها في المجتمع، وزيادة المعارف لإحداث التغيير المنشود والمشاركة المستهدفة.

٩. إطلاق حوار وطني عبر وسائل الإعلام حول تخلف وفوقية الأساليب الثقافية الوطنية التي تحتفي بالشكل على حساب المضمون (ذات المرجعية السياسية التي تنظر إلى الإعلام والثقافة بصفتهما مجرد أداتين للسيطرة السياسية وحوامل للخطابات الفوقية الكلية، مع ازدراء غير مبرر للثقافة الجماهيرية) وفي عمقها الأساليب الإعلامية التي تبدو كأنها تتعامل مع الجماهير كحشود من الحمقى، رغم كل الدلائل القاطعة التي قدمتها الحرب على خطورة وإقصائية الاستقطاب الثقافي، ودور الخطاب الإعلامي والحقائق التلفزيونية فائقة الواقعية في جر السياسي إلى الأجندة الإعلامية، وفق المبدأ التجاري الشهير" التسوق واحداً لواحد" أو العالم المفصل على مقاس الفرد بدون شروط ولا خبرة ولا أهلية!

١٠. تدريب الكوادر الإعلامية الوطنية على المهارات والحرفيات التي تميز واقع حال الإعلام المعاصر الذي بات (شئنا أم أبينا) صناعة وليس رسالة بالمفهوم التقليدي (الإنجيلي)، وانتقل من مرحلة نقل الواقع

(انتقائياً) إلى مرحلة إنتاج المناهج التعليمية الشعبية وأدلة تعليم الحياة وأنماطها، مستخدماً في ذلك طبقة نخبوية جديدة (فنانون، رياضيون، مثقفون، رجال أعمال، مشاهير الحياة الاجتماعية...الخ) لها تأثير كبير في الساحة السياسية والمجتمع المدني، وتكمن قوة تأثيرها في معرفتها وابداعاتها ووعيها الفني ومهاراتها وخبراتها الفنية وذكائها التسويقي، لتجمع بين الجمهور والمفاهيم، من جهة والمنتجات الثقافية، من جهة أخرى، في نسيج تجربة حياتية، بحيث تحولت هذه الطبقة إلى "وسيط ثقافي" أو "حارس بوابة" بين الأفراد والتجارب الحياتية التي يسعون إليها، وهو سلاح وإن كان ذا حدين، إلا أن إجادة التدرب على حفرياته، يمكن أن يصب بالمطلق في مصلحة القضية الوطنية[١٠].

أخيراً، تملك وسائل الاتصال إمكانيات واعدة يمكن توظيفها في مجال التنمية الشاملة وإعادة الهيكلة الثقافية، عبر التأكيد على أن سبب جوانب الضعف في نسيجنا الثقافي الحضاري، هو عدم المساواة بيننا، وليس عدم التجانس أو التشابه، لذلك فإنَّ دور هذه الوسائل نفسها يبقى محدوداً، وربما سلبياً، ما لم يترافق بإرادة سياسية واجتماعية جادة لتحقيق الأهداف المنشودة، وما لم يترافق بإعادة هيكلية شاملة لجميع بنى المجتمع القيمية والروحية والأخلاقية والتعاقدية الوطنية التي أحدثت فيها الحرب الدائرة الكثير من الشروخ، وقدراً كبير من العطب.

[١٠] جيرمي ريفكن، **عصر الفرص – الثقافة الجديدة للرأسمالية** (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٣)، ص٢١٧-٢٢٤.

المراجع

١. اسماعيل، محمد حسام الدين. **الصورة والجسد – دراسات نقدية في الإعلام المعاصر**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨.

٢. ريفكن، جيرمي. **عصر الفرص – الثقافة الجديدة للرأسمالية**. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٣.

٣. عيسى، نهلة. "الحرب على سورية – موت الواقع وصناعة الأسطورة". محاضرة مقدمة إلى: **إعمال مؤتمر الإعلام العربي الأول**، دمشق، كانون الثاني ٢٠١٤.

٤. عيسى، نهلة. "تقنيات تحليل الصورة". دمشق: وزارة التعليم العالي، الجامعة الافتراضية، ٢٠١٦.

٥. عيسى، نهلة. **أثر تكنولوجيا التعبير المرئي على محتوى الصورة التلفزيونية في الفضائيات العربية**. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الإعلام. شباط/فبراير ٢٠٠٦.

مداد
مركز دمشق للأبحاث والدراسات
Damascus Center For Research and Studies

سورية – دمشق – مزة فيلات غربية – خلف بناء الاتصالات – شارع تشيلي – بناء الحلاق85

Damascus - syria
Tel: +963 116 114 776
Fax: +963 116 114 731

www.dcrs.sy
info@dcrs.sy